أين ذهب أهل السعادة والوَنس؟

عبد الحكيم حيدر

الفقراء من أصحاب دكاكين الحلاقة في القرى والنجوع، وصغار النجّارين والحكواتية بجوار السواقي، وفقراء الخيّاطين، وأصحاب دكاكين تصليح الأحذية البالية، وسماسرة السخل في الأسواق، والمكوجية، وعجائز الطحّانين حول قواديس ماكينات الطحين، وحكاياتهم مع نساء القرى عن الطحين والخميرة والرجال البخلاء، والمرأة التي يُحكى أن السمك ينام في زيرها، كانوا هناك معنا في جنبي المحاصيل، وفي جنبي القطن، وحينما تمتلئ الأجولة يبدأ الغناء من حناجر طيّبة مُتعطّشة للسترِ والغناء، وفي القمح أيضاً والدريس، بالأمس والله رأيت «مقرقراً» بثلاثة غرابيل يجلس في المقهى يعمامته، يتسوّل ثمن كوب الشاي، ولما تعطّف الحال بدأ يطلب السجائر أيضاً. هل وصل الوجع إلى القلوب، هل القلب هو الذي يشيب أم الرأس؟... حتّى النداء في الليل كان له ذلك الصدى، الآن كلّ واحد مع «الموبايل» يسأل عن سعر الدقيق أو ثمن غرام الذهب أو سعر الدواء، أو سعر كيلو غرام البلاستيك القديم أو الكرتون القديم أو كرتونة البيض.

بالأمس، أعطاني عم أحمد ليمونة من حديقته، رجل فلّاح من قرية بعيدة في الجبل، اسمها عزبة أبو فردة، كانت الليمونة صابحة ولها رائحة، أخرج عم أحمد الليمونة من جيب الصديري، وكأنّه ينمحني محبةً مني، وكأنّها كانت هادئة بجوار دقّات قلبه بجيب الصديري، تناولتُ الليمونة بفرح، وفي الليل كان سروري بها يشبه سروره وهو يمنحها لي، فأين ذهبت محبّات أهل السعادة والوَنس، من كان يعرف منهم العود في الموالد لأصحابه، ومن كان يسلخ من أعواد الغاب القطع بسكين ويصنع الصفافير ويركبها في حجورنا، ومن خلاله عرفنا مولد «العدرا»، شرق البحر ومولد الشيخ أبي صفّارة، ومن كان يهوى السرج ويدخل خلسة مع التجّارين إلى الكواليس في «البروفات» مثل الأستاذ يونان مدرّس الرياضيات حتّى أنهى دراسته للرياضيات في جامعة القاهرة، وكبر ونسي المسرح تماماً، بعدما امتلأت البلاد بأفلام المقاولات في السبعينيّات من القرن الماضي. من ذلك الذي كسر جناح السعادة والوَنس، فتور، أو خمول، أو كسل، أو مرض أصاب كبد السعادة؛ رغم الصحّة وعافية الأبدان وعمار الجيوب. فلوس كثيرة جداً تذهب بها الجموع يومياً، وأحياناً بالأجولة، إلى شبابيك البنوك للبحث عن مزيد من «الفائدة»، أوراق نقدية مهولة جداً ما رأيناها من قبل أيام كنّا نركب القطارات بقروش أو باشتراك سنوي، والغريب أنّنا كنّا سعداء، ونحصل على الوظيفة فور تخرّجنا في زمن كنّا نخرج فيه من حرب إلى حرب. أين ذهب صنّاع السعادة في القرى بعدما تحوّل الريف مدينةً موحشةً تحوطها مصارف المياه الواقفة، وورد النيل والترع المبطّنة شحيحة المياه. بوابات عالية من الحديد على كلّ باب وعجائز بالقرب من دكك قديمة وكلاب تتمرّغ في بقايا لهيب اليوم في بركة من طين، الأماكن موحشة فما بالك بالوَنس؟

هذه عيادة دكتور محمود علي موسى، طابق واحد من القرميد، بعد أن مات وكانت محاطةً بالخضرة والياسمين والورد، الآن هي محاطة بسيارات قديمة يتعامل معها سمكري سيارات بالدوكو، وملحاً الأيتام القديم الذي كنّا نسمع من خلاله الموسيقى من الأكورديون والآلات صار برجاً شاهقاً، وعم أبو روماني الطبّاخ الذي كان يصطاد السمك معنا، مات من زمن، وابنه روماني، الحريف في كرة القدم لم أره من أربعين سنة، وسمعت أنّه مات في العراق من سنوات. ما كلّ هذه الوحشة التي تُطلّ عليّ من الجدران؟ هل هذه الوحشة تشبه إلى حدّ كبير الآن الشكل الغناء والأقلام والأيّام والناس والكتب والمسرح والمسلسلات المطبوخة ثقيلة الظلّ، وحتّى شكل الأيتام وبعض عنفهم أحياناً كي يعيشوا؟ وكأنّ تقول إنّ الفرح يحتاج إلى فقراء لديهم إمكانية صناعة الفرح من تحت ضلوعهم كي تكون الحياة في تلك التي عشناها. ورغم ذلك تتساءل محلّقاً: أين ذلك الملحّن العبقري صاحب الكرم واللمّة بليغ حمدي، صاحب الصدر الذي يستوعب الجميع، وأين الرجل صاحب التواضع الجمّ، نجيب محفوظ، الذي حوّل نداواته برلماناً أدبياً رفيعاً، بل أين إحسان عبد القدوس ومدرسته في عالم الصحافة، بعدما ذهبت الصحافة كلّها إلى خبر كان، فهل ضاقت الأرض حقّاً أم ضاقت الصدور؟

الشبه... تلك رسالةٌ عائلة الأسد الحاكمة

أيمن الشوفي

الجُمَلُ التي شدَها اللقاءُ الصحافي العابر من فم بشار الأسد، حين ظهرَ مُشاركاً في انتخابات مجلس الشعب السوري مُنتصف شهر يوليو/ تموز الجاري، كانت كفيلةً بأن تُظهِرَه مرتعالياً، لكن بنبْرة صوتٍ خفيض ومُعتم، إذ لا يزال يظنُّ نفسه مُنتصراً على دولٍ كثيرة وزعماء أكثر. وقد تجد مزاعمُه المُستندة إلى انغماسه التامّ في «جنون العظمة» دروباً وفيرة تسلكها في كلّ مرّة يُثبتُ فيها للعالم امتلاكه لمسلك عقليّ مُخْتَلّ، الأمر الذي يساعده كثيراً على أن يظلّ طافياً بخفّةٍ فوق خرائب سورية - المنتصرة كما هو، متأهّباً لإنتاج مزيد من معنى الخراب. ولعلّ ظهوره المرئي ذاك سلّمَهُ إلى سحنةٍ خائبة، متبَسّمة، تتملّص من مجازات أيّ انتصار محموم قد يُبدعُ عقله المريض والملتوي، حينما تحدّث بصوتٍ خفيض، مُسطّح، بلا تضاريس ناتئة تعكس انتصاره المزعوم، فقلّل من الجدوى المُحتملة للقائه مع الإتراك.

في عقيدتنا السمحة، ما يصيب العبد من ربّه كلّه هو ابتلاء أو عقاب، وحينما ننظر في طبيعة ما يجده الفلسطيني اليوم، فالأغلب أنّ ما يمرّ به هو ابتلاء بحت، ومُقدّمة لأحداثٍ جسام بدأت تباشيرها تظهر هنا أو هناك. وبيدو والله أعلم أنّ هذا الابتلاء هو تكريم على جانب رفيع من لدن ربّ العباد لعباده في الأرض المُقدّسة التي باركها الله، يُؤيّد هذا تلك الهالة الوديعة التي تجري على السنة المبتلين بالقتل والفقد والتدمير، وخسران الممتلكات، لغة تسليم كامل بقضاء الله وقدره، بلا سخط أو رفض أو تذمّر، فحيثما تنظر تجد القوم يحمدون الله على ما أصابهم، ويستسلمون طواعية رضا بقضائه وقدره، ولا تكاد ترى من يشذّ عن هذه القاعدة، وكأنّ ثمّة اتفاقاً سرّيّاً بين الجميع على أن يقولوا بصوت واحد عقب كلّ ابتلاء، مهما بلغت فداحته، «الحمد لله»، وهذه العبارة بالذات حيّرت أهل الغرب ممّن لا يعرفون معناها، وحيّرتهم أكثر حينما تُرجِمت لهم، وطفقوا يسألون: على ماذا يحمد هؤلاء ربّهم؟ وكان هذا السؤال مُفجّراً رغبةً جامحةً في فهم الدين الذي صنع هذه النفس الراضية، رغم ما يصيبها من ابتلاء فوق احتمال كثير من البشر، وهو ما أفضى، بالتالي، إلى دخول الآف من غير المسلمين إلى الإسلام. وبعيداً عن هذه اللغة التحليلية التي تهين كلّ هذا السرد، ينفجر في النفس سؤال: ماذا بيننا وبين إيمانٍ كهذا؟ أيّها الفلسطيني حتّى خصّك بكلّ هذا القدر من الابتلاء والصبر والبطولة والبلاء الحسن؟ من أين لهذا الإنسي العادي كلّ هذا التحمّل وثمّة رجال في عالمنا يبكون إذا جاءوا، ويتنحنحون للسعة نحلة، وينهارون في غزّة من أول صفعة، بل ثمّة قاماتٌ و«زلَمٌ» ذوو مكانة رفيعة ووظائف عُليا، يحملون أسماءنا ويتحدّثون لغتنا، ويدينُون (ولو رسمياً) بديننا، يركعون تحت أقدام العدو، ويلحسون أحذيته، خوفاً على منصب أو جاه أو مال، أو طمعاً في شيء من حطام الدنيا؟

ماذا بيننا وبين الله، أيّها الفدائي الذي لم يبلْ قسطاً من راحة أو وجبةً كاملة أو حمّاماً ساخناً أو ملبساً جديداً منذ عشرة أشهر، ولم تزل، رغم كلّ ما أصابك وأصاب أهلك وربعك وأسرتك، من تشتيت وقتل وسجن وتهجير وتدمير، قابضاً على سلاحك الذي صوّبته بعرقك، تناجز العدو وتثخن فيه، وتظهره؟ من أين لك مثل هذه القوّة وهذا العزم، بل الجبروت، لتقف، وأنت العاري إلّا من إرادتك الفولاذية، ندّاً لأكثر الجيوش توحّشاً ودعماً وتسليحاً، وتوقع في صفوفه خسائر لم تجرؤ على مُجرّد التفكير فيها جيوش مجحفلة؟ ماذا بيننا وبين الله، أيّها الشعب الذي شققت عصا الطاعة، فخرجت من سيرة القطيع، وضربت بعرض الحائط كلّ دروس الخصي والقهر والإذلال، التي دأبت البساطير على رسمها على جبين الملايين من الذين، حين يتحدّثون بأمر ما، يتلفّتون خوفاً من أن يسمعهم متنصّت أو راصد؟

ماذا بيننا وبين الله، أيّها الشعب الذي قرن، حتّى تبدّت للعيان عيوب التوريث السياسي ونقائصهُ الكثيرة، ولم يستطع رئيس النظام الحالي الاحتفاظ بالسلطة الكاريزميّة التي نشأ عليها نظام الحكم الحالي في سورية، ولا سيما بعد ثورة عام 2011 ضدّه، واستعانته بالتدخّل الخارجي لأجل تمكينه من مواصلة حكم البلاد، وهذا بالضبط ما جعل النظام يتعثّر بنفسه، ويهوي مرّات كثيرة، ربّما أولها منذ اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري في فبراير/ شباط عام 2005، وصولاً إلى انتفاضة السوداء المستمرّة منذ أغسطس/ آب عام 2023، وهو النظام الذي صمّمه حافظ الأسد على مقاس شخصيته، لكنّه تناسى أنّ نظامه في القصر الأولي، ولعلّ فقيّة متعافية من مكائد الزمن، ومن موجتين متتاليتين من مرض السرطان. فلماذا تصرُّ عائلة الأسد على إنتاج هذا الشبه وتكريسه، ومن ثمّ ترويجه؟ وبماذا ينفعهم؟

منذ مطلع سبعينيّات القرن الماضي، تحدّدت ملامحُ جديدةٌ للسلطة في سورية سلطةٌ كاريزميّةٌ تدور مفرداتها كلّها حول شخصية حافظ الأسد، وبقيت كذلك طيلة ثلاثة عقود من الزمن، السلطة هي الرئيس، والدولة هي الرئيس، والرئيس كلاهما، وما إن انتقلت السلطة إلى بشّار الأسد (يمثّل واشقاءه الجيل الثاني من الأسرة الحاكمة) قبل نحو ربع قرن، حتّى تبدّت للعيان عيوب التوريث السياسي ونقائصهُ الكثيرة، ولم يستطع رئيس النظام الحالي الاحتفاظ بالسلطة الكاريزميّة التي نشأ عليها نظام الحكم الحالي في سورية، ولا سيما بعد ثورة عام 2011 ضدّه، واستعانته بالتدخّل الخارجي لأجل تمكينه من مواصلة حكم البلاد، وهذا بالضبط ما جعل النظام يتعثّر بنفسه، ويهوي مرّات كثيرة، ربّما أولها منذ اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري في فبراير/ شباط عام 2005، وصولاً إلى انتفاضة السوداء المستمرّة منذ أغسطس/ آب عام 2023، وهو النظام الذي صمّمه حافظ الأسد على مقاس شخصيته، لكنّه تناسى أنّ نظامه في القصر الأولي، لن ينسخةٍ فتيّة متعافية من مكائد الزمن، ومن موجتين متتاليتين من مرض السرطان. فلماذا تصرُّ عائلة الأسد على إنتاج هذا الشبه وتكريسه، ومن ثمّ ترويجه؟ وبماذا ينفعهم؟

منذ مطلع سبعينيّات القرن الماضي، تحدّدت ملامحُ جديدةٌ للسلطة في سورية سلطةٌ كاريزميّةٌ تدور مفرداتها كلّها حول شخصية حافظ الأسد، وبقيت كذلك طيلة ثلاثة عقود من الزمن، السلطة هي الرئيس، والدولة هي الرئيس، والرئيس كلاهما، وما إن انتقلت السلطة إلى بشّار الأسد (يمثّل واشقاءه الجيل الثاني من الأسرة الحاكمة) قبل نحو ربع قرن، حتّى تبدّت للعيان عيوب التوريث السياسي ونقائصهُ الكثيرة، ولم يستطع رئيس النظام الحالي الاحتفاظ بالسلطة الكاريزميّة التي نشأ عليها نظام الحكم الحالي في سورية، ولا سيما بعد ثورة عام 2011 ضدّه، واستعانته بالتدخّل الخارجي لأجل تمكينه من مواصلة حكم البلاد، وهذا بالضبط ما جعل النظام يتعثّر بنفسه، ويهوي مرّات كثيرة، ربّما أولها منذ اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري في فبراير/ شباط عام 2005، وصولاً إلى انتفاضة السوداء المستمرّة منذ أغسطس/ آب عام 2023، وهو النظام الذي صمّمه حافظ الأسد على مقاس شخصيته، لكنّه تناسى أنّ نظامه في القصر الأولي، لن ينسخةٍ فتيّة متعافية من مكائد الزمن، ومن موجتين متتاليتين من مرض السرطان. فلماذا تصرُّ عائلة الأسد على إنتاج هذا الشبه وتكريسه، ومن ثمّ ترويجه؟ وبماذا ينفعهم؟

> منذ مطلع السبعينيّات، تحدّدت ملامحُ جديدةٌ للسلطة في سورية سلطة كاريزميّة تدور حول حافظ الأسد، وبقيت كذلك ثلاثة عقود

على الشراء، غير أنّ ابنهُ الفاقد للكاريزما الملائمة لملء ذاك الفراغ في أعلى هرم السلطة، والناجم عن موت أبيه عام 2000، جعله متيقّناً من استحالة مزاولته لهذا الدور، والذي ربّما زجّ به داخل رُهاب حقيقي، وقاده فيما بعد إلى الالتحامّ بنموذج شخصيةٍ فصاميّة تعيش واقعاً افتراضياً لا يتطابق مع الواقع الفعلي، بل ويشذّ عن قوانينه. يقول ماكس فيبر أيضاً: «لا تشكّل الكاريزما ميزةً أساسيةً للقائد فحسب، بل إنّها تُحدّد أيضاً العلاقة بين القائد والاتباع، فكلما ازداد رصيد هذه الكاريزما قوةً، ازدادت العلاقة الإيجابية بين الطرفين، والعكس صحيح». فيكون من الهيّن هنا تتبّع الإرث الانهزامي الذي استولى على مسيرة بشّار الأسد وربّما غير شرعي، لسلطةٍ غير شرعيّة أيضاً، بالمفهوم الدستوري للعقد الاجتماعي، ثم فقدانه الخديريجيّ والمُؤكّد لسطوة حضور «شخصيةٍ الطاغية» كاريزما مُهرّ بها النظام السياسي في سورية منذ عام 1970، وهذا نجده بوفرة في كلّ مرّة كان يتقدّم فيها النفوذ الإيراني، والروسي داخل المؤسّستين العسكرية والأمنية، كما في باقي مؤسّسات الدولة.

ومهما جازفنا لفهم العدمية التي جَبَلَ بها بشار الأسد خياراته في التعامل مع البلاد، سواء اتكانا على المنهج التجريبي الاستقرائي، الذي يجيّله كثيراً الفيلسوف الإنكليزي جون لوك، أم استدلالنا المنهج العقلي الاستنباطي، الذي ينادر به دوماً الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، سنكون دائماً واقفين على مشارف إحالات ثابتة تجرّنا إلى عيوب الشخصية الدونكيشوتيّة التي استقرّت داخل وعي بشّار الأسد، وأضاف لها طواحين هواءٍ أكثر بكثير من التي صوّرها الروائي الإسباني ميخائيل سيرفانتس، حين كتب روايته الشهيرة تلك (دونكيشوت)، ليصير من السهل عليه إقناع نفسه بأنّه الفارس النبيل، وربّما الوحيد من نوعه على وجه الكوكب، الذي يعالج برمحه ألف عدوّ، وألف دولة معادية، وينتصر بدعم مُؤكّد من الأجرام السماوية، ضمن سياقٍ تصوّراته العقلية والنفسية فقط، ذات الطابع الهذياني المريض.

ولعلّ الجيل الثالث من تلك العائلة (يتجسّد بأبناء بشّار الأسد بصورة خاصّة) يُرادُ له أن يظهر لامعاً بزّاقاً، بلا دماء عالقة فوق بشرة الوجه، أو الأصابع المتلكئة، إذ لطالما صُوّر بشّار الأسد في كثير من الرسوم الكاريكاتيرية التي نالت منه، والدماءُ تُحدّق بنا من وجهه ويديه، وكأنّ الشبه بين الأب وابنه يُرسل من هنا إلى مساحةٍ آمنة، وكأنّ بشّار الأسد يتجسّد بالصحوة والصورة في تُعذّب من يراها، وبلا السرديّة المُرّة عن تدمير البلاد ونهبها، التي تُطلّ علينا موسيقى تصويرية ترافق رئيس النظام في كلّ ظهور علنيّ له. هو التطهّر من الشبه بالشبه إذاً، ولعلّ هذا ما يرمي إليه «ترويجُ» حافظ بشّار الأسد نسخةً غير ملوّثة من أبيه، وكذلك زين بشّار الأسد في آخر ظهور لها برفقة شقيقها، والذي بدت فيه كأنّها أسماء الأسد، ولكنها غير ملوّثة بشهوة المال والسلطة والاستهتار بالشأن العام.

(كاتب سوري)

عندما يعود ترامب إلى البيت الأبيض

حسان الأسود

تلقّى الرئيس الأميركي السابق، دونالد ترامب، في سباق الانتخابات الرئاسية، دفعةً قويّةً إلى الأمام، بعد محاولة الاغتيال الجسدي الفاشلة التي تعرّض لها، وعزّزت سرديّتهُ بشأن استهدافه، ليس فقط من الديمقراطيين، بل من الدولة العميقة أيضاً، التي يعتبر نفسه أتى من خارجها سابقاً إلى سدّة الحكم. وسواءٌ أكان بريئاً بالفعل من التهم الجنائية الموجّهة إليه أم لا، فإنّ ذلك لا يلعب كبير دور في قرار الناخب الأميركي الأبيض، ثقةً إحساسٌ لدى هذه الفئة الموازنة من الأميركيين بأنّ هذا الشخص، الذي يمثّل النموذج الأميركي الصرف بحديثه البسيط، المباشر والصريح، بمخاطبته عموم الناس بلغتهم، باستخدام العبارات التي يفهمها أغلبُهم كما هي، بعيداً عن لغة السياسة حمّالة الأوجه والتفسيرات، بأنّه كان مُستهدفاً بالفعل لأنّه أتى من خارج منظومة الحكم، ولأنّه بنى نفسه من دون المرور بدائرة الانتفاع من مؤسّساته.

هنا تحضر تفسيرات غوستاف لوبون لسيكولوجية الجماهير، التي تبحث عن قائدٍ ملهم، فالجمهور كما يصفه لوبون ليس أذكى من الفرد، فلا مقارنة بين عبقرية فولتير وأيّ جمهور بشري على الإطلاق، ويعود ذلك برأيه إلى أنّ الجمهور يمتلك خصائص ليست متأتيةً من حاصل جمع خصائص أفراده، بل هي، في أحيان كثيرة، معاكسة لها. الجمهور في كثير من حالاته، وفق لوبون حركيٌّ، مزاجيٌّ، عاطفيٌّ تقوده الحماسة، حتّى إنّ أفراده يصبحون، في لحظة ما، مُستعدّين للتضحية، ليس فقط بمصالحهم، بل بأرواحهم عندما يكونون ضمن بوتقة واحدة تصهرهم وتصنع منهم القوّة الطاغية التي لا رادّ لجموحها. قد يُؤثّر انسحاب الرئيس الحالي جو بايدن من السباق الانتخابي لصالح نائبته، كامالا هاريس، في الصورة العامة، خصوصاً أنّ التنوّع الأميركي واسع إلى درجة تجعل من الصعب احتواء خيارات الناخبين بين حزبين فقط، لكن، لا أحد يعرف بالضبط أين تكمن عناصر المفاجآت الانتخابية.

سيغيّر المشهد السياسي العالمي مع قدوم ترامب الأكثر ترجيحاً حتى اللحظة. سيبدأ بخطوات واضحة قد لا تُرضي شركاءه الأوروبيين والعرب، وحتّى الخصوم الروس والصينيين، على عكس ما فعلت إدارة بايدن، قد ينسحب ترامب من العراق وسورية إذا لم تبدأ إسرائيل حربها الأوسع على إيران وأذرعها في المنطقة، وقد صرّح سابقاً برغبته هذه، وسحب بعض الجنود من سورية. وتربط ترامب بالرئيس التركي رجب طيّب أردوغان علاقة جيّدة، فثمّة عناصر كثيرة مشتركة بين الرجلين، وإضافة إلى ذلك، ثمّة مصلحة مشتركة بتحجيم النفوذ الإيراني في المنطقة وتبريد ساحات الصراع في أسيا عند الحدود الروسية، وهذا يُعزّز من صداقته لبوتين، الذي أبدى إعجابه به مرّات عديدة. سيستثمر ترامب التوتّر الكبير في العلاقات الإيرانية التركية وصراع المصالح الإقليمية وسباق النفوذ. كذلك سيستثمر رغبة الحكومات العربية ومصالحها في تحجيم النفوذ الإيراني في المنطقة. سيجني كثيراً من الفوائد بربط المخاوف العربية بالتركية لبحاصر إيران في المنطقة كلّها. قد يذهب إلى منح تركيا مكافأةً ثانية في مناطق شمال شرقي سورية، وقد تدفع ثمان ذلك، ليس الإدارة الذاتية والمشروع الكردي القابع خلفها فقط، بل سورية كلّها. ستستفيد روسيا من إضعاف إيران في المنطقة عموماً، وفي سورية خاصّة، وقد يكون الشمال السوري كلّه جائزة مشتركة للروس والأتراك إذا أخذ ترامب من بوتين بعض التعهدات فيما يخص وقف الحرب في أوكرانيا، وعدم التصعيد تجاه الأوروبيين الذين لن يكونوا مرتاحين لقدومه مُجدّداً رئيساً لحليفتهم الأقوى في وجه الروس.

> التنوّع الأميركي واسع إلى درجة تجعل من الصعب احتواء خيارات الناخبين بين حزبين فقط، ولا أحد يعرف أين تكمن عناصر المفاجآت الانتخابية

سورياً، يمكن أن تُنتهي المساومات والمسارات الترامبيّة في هذه الصعد كلّها إلى نتائج تخدم نظام الأسد من حيث لا يحتسب، فرغم التضييق الكبير المتوقّع على الإيرانيين، سيكون لتقوية الروس ومنحهم التفويض بإنهاء الأزمة أثر مباشر على نهج التطبيع السائد تجاه النظام. لكن ليس بالضرورة أن يتمّ ذلك بشكل تلقائي، فالوجود التركي له تأثير أيضاً، كما أنّ مصالح الشركاء العرب ستلعب دوراً في ذلك مهما كان بسيطاً.

ستلعب شخصية ترامب ذاتها دوراً مهمّاً في ذلك، فالرجل يحبّ اللعب مع الأنداد، وهو لا يرى في بشّار الأسد إلا ما وصفه به في لحظةٍ تجلٍّ خارجة عن اللياقة الدبلوماسية، لكنّها أصابت كبد الحقيقة في الواقع. قد يشترط ترامب على الروس والأتراك والعرب استبعاد الأسد من المشهد، لا لقناعته بضرورة تطبيق القرارات الدولية، فهو من حاول هدم عديد من مؤسّسات المجتمع الدولي، بل لأنّه يحتقر الاقزام فقط، ولا يرغب بأن يطاوله شخص سبق له وأن وصفه بـ«الحيوان». ويبقى السؤال الأكثر إلحاحاً بالنسبة لنا سوريين تائرين في وجه نظام الاستبداد الأسدي: كيف يمكن أن نجلس إلى طاولة المساومات هُنا طرفاً له حقوق ومصالح، لا أن نكون كما نحن الآن، الوجبة التي يتقاسمها الحضور؟... الإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر الهيّن، وهي في الأحوال كلّها برسم جميع السوريين والسوريات، وليس المعارضين أو الثائرين منهم ومنهنّ فقط.

(كاتب سوري في برلين)

كاريكاتير عماد حجاج

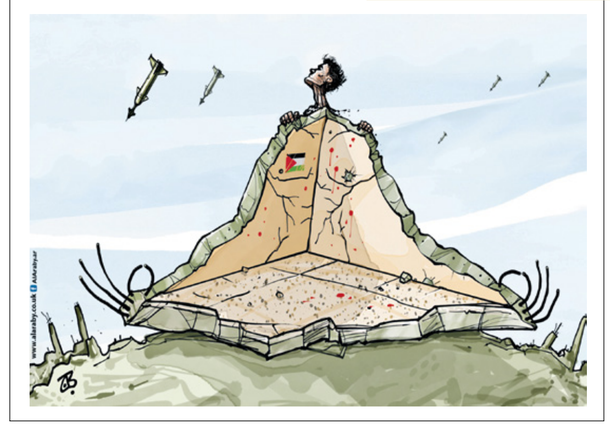

ماذا بينكَ وبين الله أيّها الفلسطيني؟

حلمي الأسمر

حفل التاريخ البشري بأحداث جسيمة وابتلاءات تكاد تفوق قدرة البشر على الاحتمال، أصابت هذا الشعب أو ذاك، في العصر الحديث، يبدو أنّ الشعب الفلسطيني حاز «قصب السبق»، ونال أرفع وسام في سباق الابتلاءات، فما شهده خلال أخر مائة عام مكتظّ بسير الكارثة والبطولة، الانكسار والصمود، السحق والمحق والنهوض من تحت الرماد. أمّا الجزء الأكثر دموية وكارثية في سيرته فهو تلك المحطة التي نرى فصولها اليوم بكلّ توحّشها وبشاعتها وبطولتها، في غزّة تحديداً، وفلسطين عموماً، حيث يُقدّم هذا الشعب يومياً «وجبة» من الشهداء والجرحى والمعتقلين والأسرى والمختطفين، فضلاً عمّا يخسره في صعيد الممتلكات والابتداءات من نقص في الأموال والغذاء والدواء، وبكلّ ما يتعلّق بما يلزم من أساسيات لاستمرار الحياة لا الرفاه.

ماذا بيننا وبين الله، أيّها الفدائي الذي لم يبلْ قسطاً من راحة أو وجبةً كاملة أو حمّاماً ساخناً أو ملبساً جديداً منذ عشرة أشهر، ولم تزل، رغم كلّ ما أصابك وأصاب أهلك وربعك وأسرتك، من تشتيت وقتل وسجن وتهجير وتدمير، قابضاً على سلاحك الذي صوّبته بعرقك، تناجز العدو وتثخن فيه، وتقهره؟ من أين لك مثل هذه القوّة وهذا العزم، بل الجبروت، لتقف، وأنت العاري إلّا من إرادتك الفولاذية، ندّاً لأكثر الجيوش توحّشاً ودعماً وتسليحاً، لغة تسليم كامل بقضاء الله وقدره، بلا سخط أو رفض أو تذمّر، فحيثما تنظر تجد القوم يحمدون الله على ما أصابهم، ويستسلمون طواعية رضا بقضائه وقدره، ولا تكاد ترى من يشذّ عن هذه القاعدة، وكأنّ ثمّة اتفاقاً سرّيّاً بين الجميع على أن يقولوا بصوت واحد عقب كلّ ابتلاء، مهما بلغت فداحته، «الحمد لله»، وهذه العبارة بالذات حيّرت أهل الغرب ممّن لا يعرفون معناها، وحيّرتهم أكثر حينما تُرجِمت لهم، وطفقوا يسألون: على ماذا يحمد هؤلاء ربّهم؟ وكان هذا السؤال مُفجّراً رغبةً جامحةً في فهم الدين الذي صنع هذه النفس الراضية، رغم ما يصيبها من ابتلاء فوق احتمال كثير من البشر، وهو ما أفضى، بالتالي، إلى دخول الآف من غير المسلمين إلى الإسلام. وبعيداً عن هذه اللغة التحليلية التي تهين كلّ هذا السرد، ينفجر في النفس سؤال: ماذا بيننا وبين أيمانٍ كهذا؟ أيّها الفلسطيني حتّى خصّك بكلّ هذا القدر من الابتلاء والصبر والبطولة والبلاء الحسن؟ من أين لهذا الإنسي العادي كلّ هذا التحمّل وثمّة رجال في عالمنا يبكون إذا جاءوا، ويتنحنحون للسعة نحلة، وينهارون في غزّة من أول صفعة، بل ثمّة قاماتٌ و«زلَمٌ» ذوو مكانة رفيعة ووظائف عُليا، يحملون أسماءنا ويتحدّثون لغتنا، ويدينُون (ولو رسمياً) بديننا، يركعون تحت أقدام العدو، ويلحسون أحذيته، خوفاً على منصب أو جاه أو مال، أو طمعاً في شيء من حطام الدنيا؟

ماذا بيننا وبين الله، أيّها الفدائي الذي لم يبلْ قسطاً من راحة أو وجبةً كاملة أو حمّاماً ساخناً أو ملبساً جديداً منذ عشرة أشهر، ولم تزل، رغم كلّ ما أصابك وأصاب أهلك وربعك وأسرتك، من تشتيت وقتل وسجن وتهجير وتدمير، قابضاً على سلاحك الذي صوّبته بعرقك، تناجز العدو وتثخن فيه، وتقهره؟ من أين لك مثل هذه القوّة وهذا العزم، بل الجبروت، لتقف، وأنت العاري إلّا من إرادتك الفولاذية، ندّاً لأكثر الجيوش توحّشاً ودعماً وتسليحاً، وأيضاً لغة تسليم كامل بقضاء الله وقدره، بلا سخط أو رفض أو تذمّر، فحيثما تنظر تجد القوم يحمدون الله على ما أصابهم، ويستسلمون طواعية رضا بقضائه وقدره، ولا تكاد ترى من يشذّ عن هذه القاعدة، وكأنّ ثمّة اتفاقاً سرّيّاً بين الجميع على أن يقولوا بصوت واحد عقب كلّ ابتلاء، مهما بلغت فداحته، «الحمد لله»، وهذه العبارة بالذات حيّرت أهل الغرب ممّن لا يعرفون معناها، وحيّرتهم أكثر حينما تُرجِمت لهم، وطفقوا يسألون: على ماذا يحمد هؤلاء ربّهم؟ وكان هذا السؤال مُفجّراً رغبةً جامحةً في فهم الدين الذي صنع هذه النفس الراضية، رغم ما يصيبها من ابتلاء فوق احتمال كثير من البشر، وهو ما أفضى، بالتالي، إلى دخول الآف من غير المسلمين إلى الإسلام. وبعيداً عن هذه اللغة التحليلية التي تهين كلّ هذا السرد، ينفجر في النفس سؤال: ماذا بيننا وبين أيمانٍ كهذا؟ أيّها الفلسطيني حتّى خصّك بكلّ هذا القدر من الابتلاء والصبر والبطولة؟

> ماذا بينكَ وبين الله أيّها الفلسطيني حتّى خصّكَ بكلّ هذا القدر من الابتلاء والصبر والبطولة؟

ترى بعيني رأسك أبناءك يبتلعهم الركام، أو يقضون جوعاً ومرضاً، ثم تصرخ بالمقاومة (التي سبّبت لك كلّ هذا الابتلاء حسب قنوات الانبطاح والتطبيع ومعلّقيهم وكتّابهما): إيّاكم أن تتوقّفوا أو تسلّموا أو تتهاونوا في شروط وقف إطلاق النار، بل تطلب من رجالها أن يمضوا حتّى نهاية الشوط، بل حتّى آخر طفل فلسطيني؟

ماذا بيننا وبين الله، حتّى حمّلك هذه الأثقال كلّها، فلم تئن، بل شكرته، وفوّضت أمرك إليه، ومضيت حاملاً بعضاً من متاع، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، بحثاً عن خيمة أو ظلّ جدار وقع نصفه أو بيت بنيته بعرق جبينك ولم يبقَ منه إلا آثر ولا عين، بل محض ذكريات وركام؟

لأيّ دور أو مهمّة يعدّك ربّ العزة، حتّى يدخلك مثل هذه التجربة، التي تحسبها عبء مسبوقة، ولا تشبه في سوئها نفسها وفداحتها غير فرن ناري يصهر الحديد ويحيله سائلاً لزجاً؟ ما المهمّة التي تنتظر بعد أن علّمت العالم كلّه أنّ داود الضعيف الغضّ، الذي هزم جالوت العملاق بمقلاع، لم يمت، بل ثمّة داودون كثيرون بالآلاف، يهزمون كلّ يوم جواليت كثيرة.

(كاتب من الأردن)

قمة الناتو وأوروبا... تحدّيات وتحوّلات

باسل الحاج جاسم

بالنسبة للاتحاد الأوروبي، تُعتبر قمّة حلف شمال الأطلسي (ناتو)، التي انعقدت في واشنطن خلال النصف الأول من يوليو/ تمّوز الجاري، فرصةً لتعزيز التعاون بين المؤسّستين، إذ كان هناك اتفاق على مجموعة من الخطوات لتعزيز الأمن والدفاع في أوروبا، والتركيز على التهديدات المتزايدة من روسيا والصين، وزيادة الإنفاق الدفاعي، وتعزيز القدرات الدفاعية، بالإضافة لدعم أوكرانيا.

وكما جرت العادة في قضايا كثيرة كبرى، تباينت مواقف الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي من نتائج القمّة، فرحبت بعض الدول، مثل بولندا ودول البلطيق، بقوّة بالتأكيد على التزام الحلف بدعم أوكرانيا وتعزيز الأمن الأوروبي، بينما أعربت دول أخرى، مثل المانيا وفرنسا، عن قلقها من احتمال تصاعد التوتّر مع روسيا، ولا تزال المجر مُتردّدة في زيادة إنفاقها الدفاعي، أو اتخاذ خطوات ضدّ روسيا، بالإضافة إلى المخاوف من أنّ التركيز المتزايد على الأمن والدفاع سيؤدّي إلى إهمال قضايا أخرى مُهمّة، مثل المناخ وحقوق الإنسان. وبشكل عام، اتّخذت المجر موقفاً منفرداً خلال قمة «الناتو»، تميّز بمعارضتها لتوسيع الحلف، وانتقادها سياسة واشنطن تجاه روسيا، ودعوتها إلى علاقات أكثر تعاوناً مع الصين، وعارضت فرض عقوبات على الغاز الروسي، نظراً إلى اعتمادها الكبير على مصدر الطاقة هذا.

صحيحٌ أنّ من الصعب التنبّؤ بشكل دقيق بالتأثير الذي قد تمارسه قمة «الناتو» في الاتحاد الأوروبي، لكن من المحتمل أن يكون للقمّة تأثير كبير على التكتّل الأوروبي في الأشهر والسنوات المقبلة، وقد يُؤدّي التأكيد المتجدّد على الأمن والدفاع إلى زيادة الإنفاق العسكري في دول الاتحاد، وتعزيز التعاون العسكري بين الدول الأعضاء، وقد يُؤدّي أيضاً إلى اتخاذ موقف أكثر تشدّداً تجاه روسيا والصين، وستعتمد التأثيرات الفعلية للقمّة على كيفية تنفيذ الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي التعهدات التي اتّخذت، ومن المرجّح أن تستمر المناقشات بشأن دور الاتحاد في الأمن والدفاع بعض الوقت، في ظلّ مخاوف بشأن احتمال تصاعد التوتّر مع روسيا.

ولم تكن الانتخابات الرئاسية الأميركية غائبةً عن أجواء القمّة، وينظر إلى أداء بايدن في القمّة بأنّه مُهمٌّ، ليس فقط بالنسبة إلى الأميركيين، بل للقادة المشاركين أيضاً، الذين يتطلّعون إلى مستقبل حلف الناتو. وبدت أوروبا بالفعل في مناقشة مُستقبل الحلف في حال فوز ترامب بالانتخابات في نوفمبر/ أواخر وسام في سباق الابتلاءات، فما شهده خلال أخر مائة عام مكتظّ بسير الكارثة والبطولة، الانكسار والصمود، السحق والمحق والنهوض من تحت الرماد. أمّا الجزء الأكثر دموية وكارثية في سيرته فهو تلك المحطة التي نرى فصولها اليوم بكلّ توحّشها وبشاعتها وبطولتها، في غزّة تحديداً، وفلسطين عموماً، حيث يُقدّم هذا الشعب يومياً «وجبة» من الشهداء والجرحى والمعتقل

جدل المقاطعة والمشاركة في رئاسيات تونس

أنور الجمعاوي

تعدّ رئاسة الجمهورية مؤسّسة حيوية فاعلة داخل الاجتماع السياسي في تونس، قبل الثورة وبعدها، فقد ساهمت، عقوداً، في رسم معالم السياسات العامّة للبلاد، ومدّ جسور التواصل مع الخارج، رافعة شعار تعزيز مقولة السيادة الوطنية، وتأمين الوحدة الداخلية، فضلاً عن تولّيها قيادة القوّات المسلّحة. وتمتّع رئيس الجمهورية بصلاحيات واسعة زمن حُكم الحبيب بورقيبة، وخلَفه زين العابدين بن علي، في ظلّ هيمنة نظام رئاسي مطلق. وتراجع نفوذ رئيس الدولة نسبياً خلال عشرية الانتقال الديمقراطي (2011 . 2021)، بسبب محدودية صلاحياته في ظلّ نظام برلماني مُعدّل. ومع صعود حركة 25 يوليو/ تموز (2021)، بقيادة قيس سعيّد، تزايد نفوذ رئيس الجمهورية، الذي غدا محور النظام السياسي السائد، وقوام السلطة الحاكمة، وبيده جُلّ مفاتيح إدارة البلاد. والثابت أنّ الانتخابات الرئاسية، منذ الاستقلال (1956)، شهدت إقبالاً شعبياً مكثّفاً لدراية الناس بأهمّيتها الوظيفية، وقدرتها التغييرية، ولقيمة الرئيس الاعتبارية والرمزية في وعي جمعي ما انفكّ يستبطن فكرة الرئيس/ الأب، والزعيم/ الراعي، والقائد/ المُخلّص. وستشهد تونس في بداية شهر أكتوبر/ تشرين الأول المقبل (2024)، تنظيم الدور الأوّل من الانتخابات الرئاسية، وهي الثانية عشرة منذ قيام النظام الجمهوري، والثالثة بعد الثورة. وسيختار الناخبون الرئيس الثامن في تاريخ البلاد لولاية مدّتها خمس سنوات. وتكتسب الرئاسيات المقبلة أهمّيتها من دورها في تحديد معالم النظام السياسي خلال السنوات المقبلة، ورسم طبيعة العلاقة بين القصر الرئاسي والقوى المُعارِضة.

ويتبيّن الدارسُ حركةَ الاجتماعَ السياسي الراهن في تونس تباين المواقف من جهة المشاركة في انتخابات السادس من أكتوبر/ تشرين الأول 2024، اقتراعاً وترشيحاً، أو مقاطعتها أو العزوف عنها. ولكلّ موقفٍ جمهوره وخلفياته وأهدافه. ويمكن التمييز منهجياً بين ثلاث شرائح انتخابية. الأولى، أنصار الرئيس قيس سعيّد والأحزاب الموالية له. والثانية المُعارضون له ولمسار «25 يوليو» ومخرجاته. والثالثة فئة صامتة، لا تُدين بالولاء للرئيس ولا لخصومه. عملياً، يُعتبر أتباع الرئيس قيس سعيّد في طليعة الداعين إلى التصويت بكثافة في الاستحقاق الرئاسي المقبل، فقد أعلن سعيّد ترشّحه للتنافس على كرسي قرطاج من جديد، وأنّه فعل ذلك «استجابةً لنداء الوطن»، وردّاً سابقاً على سؤال بشأن اعتزامه الترشّح لولاية ثانية، قائلاً: «لستُ مُستعدّاً لأن أُسلّم وطني لمن لا وطنية لهم. هي قضية مشروع وليست أشخاص. القضية هي كيف نُؤسّس مرحلةً جديدةً في التاريخ التونسي». وفي ذلك إشارة واضحة إلى أنّ الرجل حريصٌ على السلطة، معني بالاستمرار في الرئاسة، ومشغول بالتأسيس لمشروع سياسي على طريقته، مشروع قوامه، بحسب مراقبين، فكرة البناء القاعدي، وإلغاء الوسائط التمثيلية بين الرئيس/ القائد وشعبه، وتجميع كلّ السلطات والصلاحيات بيده في ظلّ نظام رئاسي مُطلق. ويقتضي استمرار ذلك المشروع تحشيد الدعم الجماهيري له، والتفاف الناس من حوله حتّى يكتسب شرعية شعبية على كيف ما. لذلك، تكثّفت حملات الدعاية للرئيس عبر بعض وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي، وجدّ أشياعه في دعوة الناس إلى التظاهر دعماً له، وحثّهم على الإقبال بكثافة على صناديق الاقتراع والتصويت له حتّى يواصل ما يسمّونه مساره «الإصلاحي» ومشروع «تصحيح الثورة»، من وجهة نظرهم. وقد دخل سعيّد منذ شهور، بحسب مراقبين، في حملة انتخابية سابقة لأوانها من خلال تعريضه بخصومه السياسيين، وقيامه بزيارات فجائية لمؤسّسات عمومية، ولمناطق طَرَفية، حتّى يظهر في صورة الرئيس القريب من الناس، الحريص على التفاعل مع مشاغلهم، الميّال إلى فتح ملفّات الفساد والواعد بتحسين أوضاع الفئات والجهات الهشّة. ويجد هذا النهج الشعبوي هوىً لدى طيف من الناس، الذين ما انفكّوا مسكونين بهاجس الرئيس/ الراعي والقائد/ الحنون، الذي يقترب منهم، ويقدّم لهم الوعود الجميلة بغد أفضل في ظلّ قيادته. ومن ثمّ، فالتوجّه نحو صناديق الاقتراع يندرج بالنسبة إلى هذه الفئة في سياق الانبهار بشخص الرئيس، والعمل على تحويل مقولاته حول السيادة، واستقلالية القرار الوطني، وحرب التحرير، واسترداد الأموال المنهوبة، وتحسين الخدمات الإدارية، وتطوير البنى التحتية، وتشغيل الشباب، من حلم إلى واقع. فالمشاركة بالنسبة إلى هذه الشريحة هي محاولة لتركيز مشروع سعيّد وإتاحة أفق زمني جديد له في ظلّ تعثّر خطواته التغييرية خلال عهدته الرئاسية الأولى.

> لا تقف القوى السياسية المُعارِضة الوازنة على قلبَ رجل واحد من جهة موقفها من رئاسيات تونس 2024
>
> تكافؤ الفرص، وتوازن الدعاية الانتخابية، واعتبار حقوق الناخبين والمُترشّحين، عوامل ستحدّد مدى صدقية الانتخابات الرئاسية التونسية 2024

ويجد أنصار سعيّد صعوبةً في إقناع الناس بالتصويت لمرشّحهم ثانيةً، لأنّ أوضاعهم المعيشية والاقتصادية والحقوقية بعد حركة 25 يوليو لم تتحسّن، بل زادت سوءاً، بحسب مراقبين. لكنّ ذلك لا يمنع من أنّ طيفاً آخر من التونسيين يصرّ على المشاركة في الانتخابات الرئاسية ترشّحاً وترشيحاً واقتراعاً، باعتبار ذلك حقّاً مواطنياً يكفله الدستور، ولا يرون حرجاً في اختيار قيس سعيّد أو غيره لحكم البلاد. بل الفيصل في نظرهم برنامج المُترشّح للرئاسيات وصدقيته، ومدى قدرته على التغيير. فهذه الفئة ترى في الانتخاب فعلاً واعياً/ مسؤولاً، وفرصة للتعبير عن الذات والمشاركة في صناعة القرار. ولسان حالها يقول «أنا أنتخب إذن أنا موجود». وهي تحتاج فقط إلى ضمانات قوية بشأن شفافية الاستحقاق الانتخابي، بحسب ملاحظين.

أمّا القوى السياسية المُعارِضة الوازنة (جبهة الخلاص الوطني، والأحزاب الديمقراطية الاجتماعية، والحزب الدستوري الحرّ)، فلا تقف على قلب رجل واحد من جهة موقفها من رئاسيات 2024. فلئن التقت سابقاً عند مقاطعة الاستشارة الإلكترونية الرئاسية، والاستفتاء على دستور 2022، وقاطعت انتخابات مجلسي النواب والجهات، ونجحت في تقليص نسبة المشاركة الشعبية في تلك المحطّات الانتخابية، فإنّها اختلفت بشأن المشاركة في الانتخابات الرئاسية المقبلة. ويشقّها في هذا الخصوص موقفان. الأوّل، يذهب إلى الاستمرار في تبنّي قرار المقاطعة (حزب العمّال، شقّ من جبهة الخلاص الوطني بقيادة نجيب الشابي)، ويعتبرها حركة احتجاج ضدّ منظومة 25 يوليو ومُخرَجاتها، وضدّ المسار الانتخابي وما شابه من خروقات من قبيل اعتقال قيادات حزبية مُعارِضة وازنة، ومنعها من الترشّح للسباق الرئاسي، ومن سحب بطاقة التزكيات، وتقييد حرّية التعبير بموجب المرسوم 54، وفرض البطاقة عدد 3 على المُترشّحين، وتعديل القانون الانتخابي بطريقة أحادية. والمقاطعة عندهم رفض لإضفاء الشرعية على سياسات سعيّد، واعتراض على ما يعتبرونه مساراً انقلابياً لا تصحيحاً للثورة. والثاني، موقف داعٍ إلى حتمية المشاركة في الاستحقاق الرئاسي. إذ يحثّ بعض المُعارِضين (قيادات سابقة في حركة النهضة و«قلب تونس»، مثلا)، للنظام القائم الناسَ على المشاركة في رئاسيات 2024 بغاية استئناف المشروع الديمقراطي الذي دشّنته ثورة 2011، وتأمين تداول سلمي على السلطة، وتمكين الشعب من اختيار من يحكمه بالاحتكام إلى صندوق الاقتراع. ويرى هؤلاء أنّ المقاطعة، على أهمّيتها، في إقناع العالم بسردية اعتبار ما حصل بعد 25 يوليو 2021 انقلاباً، وفي تقليص الحاضنة الشعبية للنظام، فإنّها لم تُفلح في الحدّ من تمدّد مشروع قيس سعيّد واستئثاره بالسلطة. واللافت أنّ معسكر المُعارَضة التونسية لم ينجح في اختيار مرشّح توافقي لخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة، بسبب خلافات أيديولوجية ومصلحية وحزبوية ضيّقة. فتعدَّد المُعارِضون المتسابقون على الفوز بكرسي قصر قرطاج (عبد اللطيف المكّي، منذر الزنايدي، عماد الدايمي، مراد المسعودي، وغيرهم)، ومعلوم أنّ ذلك سيشتّت أصوات القاعدة الانتخابية، ويقلّل حظوظ المُعارَضة في كسب الرهان الرئاسي.

ويعدّ موقف العزوف عن الحدث الانتخابي، ولزوم الحياد واللامبالاة إزاء الرئاسيات المقبلة، وعدم التفاعل معها بالمشاركة أو المقاطعة، موقفاً تتبنّاه كتلة صامتة مُعتبَرة من التونسيين، ما انفكّت تتمدّد من استحقاق انتخابي إلى آخر بعد الثورة، ومعظمها من الشباب. وتعتري هذه الفئة من المواطنين حالةٌ من اليأس والإحباط من الفاعلين السياسيين عموماً، لأنّ الحاكمين والمُعارِضين على السواء لا يلتفتون إلى معاناة الناس، ولا يبذلون الجهد الكافي لاجتراح حلول واقعية لأزمات تونس المُتعدّدة. بل ينخرطون في صراع مُحتدِم على السلطة، ويبيعون لجمهور المُهمشين والفقراء والمُعدَمين في المواسم الانتخابية وعوداً وهمية، خلّابة، لا تُسمن ولا تُغني من جوع. وعندهم أنّ النظام الرئاسي لم يُؤسّس جمهورية تقدّمية عادلة منذ الاستقلال حتّى اللحظة. فجُلّ الرؤساء الذين عرفتهم البلاد قبل الثورة وبعدها كانوا يبحثون عن مجد شخصي، ونفوذ أحادي، وعن رفاه الثروة، وأبّهة الشهرة. لذلك يرون أنّ الانتخابات الرئاسية المقبلة لن تصلح ما فسد، ولن تكون بوّابةً لنهضة شاملة. فتغيير الحال من المُحال في نظرهم. لذلك يرون أنّ أصواتهم لن تُغيّر في المشهد السياسي شيئاً. وبناء عليه، اختاروا لزوم صمت احتجاجي على كيف ما. ختاماً، مثّلت غيبة النزاهة، وهيمنة الحزب الحاكم والرئيس المُتنفّذ، وكثرة الوعود الكاذبة، علامات واسمة لرئاسيات الدولة الشمولية في تونس بعد الاستقلال. ومع اندلاع الثورة أسست عشرية الانتقال الديمقراطي لتنافس سلمي نزيه على كرسي رئاسة الجمهورية. وسيكون مدى احترام المعايير الدولية للانتخابات من قبيل تكافؤ الفرص، وتوازن الدعاية الانتخابية، واعتبار حقوق الناخبين والمُترشّحين، عوامل أساسية في تحديد مدى صدقية الانتخابات الرئاسية المقبلة، ومدى إقبال الناس عليها أو عدم التفاتهم إليها.

(أستاذ جامعي تونسي)

العدوان الإسرائيلي على اليمن

بشرى المقطري

شن الكيان الإسرائيلي في العشرين من شهر يوليو/ تمّوز الجاري عدواناً على الأراضي اليمنية، إذ استهدفت المقاتلات الإسرائيلية مدينة الحديدة اليمنية، الواقعة على البحر الأحمر، بغارات عديدة طاولت أهدافاً مدنية وبنى حيوية ألحقت بها خسائر اقتصادية وبشرية. وفي حين أعلن الكيان الإسرائيلي أنّ عمليته العسكرية، التي سمّاها «اليد الطويلة»، مُبرّرة، وتأتي في سياق الردّ على مئات الهجمات التي نفّذتها جماعة الحوثي ضدّ الكيان الإسرائيلي، جديدها قبل يوم من الاعتداء عملية يافا التي استهدفت مدينة تل أبيب، فإنّ سياسة الردع التي يتبنّاها الكيان الإسرائيلي في حربه على قطاع غزّة أو باستهدافه مدينة الحديدة لا تعني سوى جرّ المنطقة إلى دورة جديدة من التصعيد.

يُشكّل العدوان الإسرائيلي على مدينة الحديدة تحوّلاً في استراتيجية الاحتواء التي اتبعها الكيان الإسرائيلي في التعاطي مع تهديدات جماعة الحوثي، فعلى مدى أكثر من أشهر من خوض الجماعة معركتها البحرية لتفعيل حصار اقتصادي ضدّ إسرائيل، ودفعها إلى وقف الحرب في قطاع غزّة، استهدفت الجماعة عدداً من السفن الموالية لإسرائيل في النطاقات المائية التي تشرف عليها، بما في ذلك تنفيذ هجمات طاولت ميناء إيلات ومدينة حيفا. تجنّب الكيان الإسرائيلي خوض مواجهة مباشرة مع الجماعة في مقابل الاعتماد على حلفائه الغربيين، وفي مُقدّمتهم أميركا وبريطانيا، لتحجيم القدرات العسكرية للجماعة، وإعاقة استهدافها للعمق الإسرائيلي مباشرة، إضافة إلى تجاوز التداعيات الاقتصادية لاستمرار إغلاق البحر الأحمر أمام السفن الإسرائيلية، وتجريب خيارات آمنة بمساعدة شركائه الإقليميين. ومن ثمّ، فإنّ تغير استراتيجية تعاطي الكيان الإسرائيلي مع تهديدات الجماعة، من الاحتواء إلى المواجهة، فرضته كما يبدو مُتغيّرات عديدة، فإلى جانب استمرار حربه في قطاع غزّة، وفشله في القضاء على حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وتعثّر مفاوضات إطلاق الرهائن، تتصاعد حدّة الاشتباكات اليومية مع مقاتلي حزب الله في لبنان، وهو ما يعني صمود محور المقاومة واستنزافه إسرائيل في جبهات مُتعدّدة، في مقابل فشلها في استعادة استراتيجية الردع، الذي أكّده استهداف جماعة الحوثي مدينة تل أبيب بطائرة مُسيّرة.

> نفّذت إسرائيل عمليتها العسكرية في اليمن في هذا التوقيت، خياراً مثالياً لاستعادة استراتيجية الردع خارج حدودها
>
> يراهن الكيان الإسرائيلي إن استهدف اليمن، حالياً أو في المستقبل، على استمرار دعم وحماية حلفائه الغربيين، وأيضاً على الإفلات من المُساءلة

وفي حين أعلنت إسرائيل، كالعادة، أنّ فشلها في اعتراض المُسيّرة التي أطلقتها جماعة الحوثي ناتج عن خطأ بشري، فإنّ اختراقها الأجواء الإسرائيلية يُشكّل تقويضاً إضافياً لأسطورة الجيش الإسرائيلي وتفوّقه، التي أطاحتها عملية طوفان الأقصى، التي نفّذتها حركة حماس، كما أنّ استهداف الجماعة مدينة تل أبيب، أي العمق الإسرائيلي، وللمرّة الأولى، وبطائرة مُسيّرة مُطوّرة عن «صماد 3»، اجتازت أكثر من ألفي كيلومتر، يعني التشكيك بالمنظومة العسكرية والأمنية والدفاعية الإسرائيلية، وفي قدرتها على تأمين إسرائيل من التهديدات الخارجية، إضافة إلى الخسائر البشرية، إذ قُتل إسرائيلي وأصيب عشرة آخرون، إلى جانب أنّ استهداف الجماعة مدينة تل أبيب يعني استهداف مركز الثقل الاقتصادي لدولة الاحتلال. ومن ثمّ، وفي ضوء استمرار هجماتها في البحر الأحمر، توقف ميناء إيلات، ممّا ضاعف التحدّيات الاقتصادية التي تواجهها الحكومة الإسرائيلية فلجأت إلى تنفيذ عملية عسكرية في اليمن خياراً مثالياً في هذا التوقيت، لاستعادة استراتيجية الردع خارج حدودها، ومن الجبهة اليمنية، وأيضاً محاولةً لتغيير إدارتها لطبيعة المخاطر التي تمثّلها جماعة الحوثي على أمن ومصالح إسرائيل.

التخطيط لردّ عسكري باستهداف مدينة الحديدة، وبعد يوم من استهداف جماعة الحوثي مدينة تل أبيب، يستلزم أكثر من اتخاذ قرار الردع بالنسبة للكيان الإسرائيلي، كما أنّ تنفيذ عملية عسكرية خارج حدودها، وعلى بعد أكثر من 1800 كيلومتر عن الأراضي المُحتلّة، يستلزم بالنسبة لكيان يشعر بالتهديد كالكيان الإسرائيلي، ويخوض حروباً في جبهات عديدة، ضمان نجاح العملية ودقّتها، وأيضاً تحقيق أهدافها، وذلك من خلال تنسيق عسكري وسياسي ودعم لوجستي من حليفيه الأميركي والبريطاني، والذي تمظهر بتزويد القوات الأميركية المقاتلات الإسرائيلية بالوقود، وأيضاً تنسيق سياسي بموعد العملية، إلى جانب تسهيل بعض القوى الإقليمية المتاخمة لليمن لاستهداف مدينة الحديدة، أو في الأقلّ تواطؤها، فرغم إعلان الكيان الإسرائيلي عبور المقاتلات المنطقة الدولية في البحر الأحمر، وأنّها لم تجتَز أجواء الدول المتاخمة لليمن، فإنّ تصريحات بعض المسؤولين الإسرائيليين بعد أيام من استهداف مدينة الحديدة أكّد مستوى من التنسيق اللوجستي مع قوى إقليمية، إلى جانب أنّ وضع مدينة الحديدة في قلب معادلة الردع الإسرائيلي ضدّ جماعة الحوثي يمثّل اختيار بنك أهداف حيوي مُتعدّد الأغراض، اقتصادي واستراتيجي، وهو ما يتماشى مع مقترحات المُتدخّلين الإقليميين في اليمن في سنوات الحرب لتوجيه ضربة للجماعة من خلال استهداف مدينة الحديدة مباشرة، والأكثر أهمّية وجود غطاء أميركي وبريطاني للهجوم الإسرائيلي على مدينة الحديدة، وذلك لتغيير معادلة تأمين الملاحة في البحر الأحمر من تهديدات الجماعة، إذ إن استهدافهما طوال أكثر من خمسة أشهر لمواقع الجماعة في اليمن لم يؤدِ إلى شلّ قدرتها العسكرية، ومع صعوبة توجيه أميركا وبريطانيا ضربات مباشرة للحديدة، فإنّ استهدافها من قبل إسرائيل، وتحت ذريعة الردّ على هجوم تل أبيب، يُحقّق غايةً عسكرية مشتركة لإسرائيل وحلفائها، إذ استهدفت الغارات الإسرائيلية جملة من الأهداف المدنية، والحيوية الاقتصادية، والبنى التحتية، ناهيك بالخسائر البشرية، فقتل أكثر من 14 مواطناً من العاملين في ميناء الحديدة، وهناك ستّة مفقودين، وأصيب أكثر من 90 مدنياً، واستهدفت الغارات مخازن الوقود والمازوت، ومخازن محطة شركة الكهرباء الرئيسية، وميناء الحديدة، وتسببت بإحراق أكثر من 40 مخزناً للبترول والمازوت والطاقة، وتدمير خمس رافعات في ميناء الحديدة، وهي ما تبقى من الرافعات العاملة في الميناء نتيجة خروج معظمها عن الخدمة بسبب سنوات الحرب. ومن ثمّ، هدف الكيان الإسرائيلي باستهداف مدينة الحديدة إلى إلحاق خسائر اقتصادية بالجماعة لأنّها ميناء رئيس يغذّي المناطق الخاضعة لها بالوقود والغذاء أيضاً، مع صعوبة معرفة تداعيات الغارات الإسرائيلية على الوضع الاقتصادي وعلى حياة اليمنيين حتّى الآن، إلى جانب ذلك توجيه رسائل سياسية بقدرة الكيان الإسرائيلي على استعادة الردع ضدّ أيّ قوّة تهدّده، وتوجيه ضربات في مناطق جغرافية بعيدة.

في الحالات كلّها، يثبت الكيان الإسرائيلي تفوّقه كالعادة من خلال استراتيجية الترويع والانتقام، لا بامتلاكه لمشروعية الدفاع عن مصالحه، باعتباره في الأول والأخير كياناً محتلاً، أي غير شرعي، ومن ثمّ فإنّ استهدافه للحديدة هو انتهاك للقانون الدولي، بتدمير بنى اقتصادية وحيوية وقتل المدنيين بشكل متعمّد، ومن جهة ثانية، ومهما اختلفنا مع أجندة جماعة الحوثي ومع استثمارها الحرب في غزّة، فإنّ استهداف أيّ دولة أجنبية اليمن، وتحت أيّ مسمى كان، هو عدوان على اليمنيين وعلى سيادة أراضيهم، ناهيك بأن يكون عدوان كيان مُحتلّ كإسرائيل، يستوجب الإدانة والتجريم. في المقابل، فإنّ الكيان الإسرائيلي وإن امتلك التفوّق العسكري فذلك لا يعني قدرته على تحقيق مستوى من الردع، إذ إنّه وإن ألحق خسائرَ بسلطة الجماعة باستهداف البنى الاقتصادية في مدينة الحديدة، فإنّ سياسته التصعيدية، واستمرار حربه في قطاع غزّة، لا تحقّق استراتيجية الردع، بل تدفع بالصراع في المنطقة إلى مستوى خطير جرّاء استمرار حربه في قطاع غزّة، ومن ثمّ تصعيد في جميع الجبهات المُساندة للمقاومة في القطاع، ومنها جبهة البحر الأحمر، وتنفيذ الجماعة هجمات في العمق الإسرائيلي، آخرها، وبعد ساعات من استهداف الكيان الإسرائيلي مدينة الحديدة، عملية نفّذتها الجماعة استهدفت ميناء إيلات في البحر الأحمر، إضافة إلى أنّ الجماعة أعلنت سابقاً الانتقال إلى المرحلة الخامسة في حربها ضدّ الكيان الإسرائيلي، بوضع مدينة يافا هدفاً عسكرياً جديداً، واستمرار عملياتها ضدّ السفن التجارية في الممرّات المائية حتّى وقف الكيان الإسرائيلي حربه على قطاع غزّة.

ومن جهة ثانية، إعلان الكيان الإسرائيلي بعد عملية الحديدة بقاء خيار استهداف اليمن في حال قامت الجماعة بهجمات تطاول عمقها، يعني فتح جبهة جديدة على إسرائيل. وبعيداً عن مستقبل المواجهة بين الجماعة وإسرائيل وعن قدرة الجماعة على تنفيذ هجمات في العمق الإسرائيلي، فإنّه ليس لدى الجماعة، ولأسباب كثيرة، ما تخسره في خوض حربها ضدّ إسرائيل بخلاف الكيان الإسرائيلي الذي يقاتل في جبهات كثيرة، ولا يمتلك غير مشروعية الاحتلال والقوّة، ومن ثمّ فإنّه وإن استهدف اليمن، الآن أو في المستقبل، يراهن على استمرار دعم وحماية حلفائه الغربيين لخوض حربه، وأيضاً على الإفلات من المُساءلة.

(كاتبة يمنية)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads